بسم الله الرحمن الرحيم

خَطَبَ عُمَرُ النَّاسَ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللهِّ صلى الله عليه وسلم قَامَ فِي مِثْلِ مَقَامِي هَذَا فَقَالَ: ((أَحْسِنُوا إِلَى أَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ يَحْلِفُ أَحَدُهُمْ عَلَى الْيَمِينِ قَبْلَ أَنْ يُسْتَحْلَفَ عَلَيْهَا وَيَشْهَدُ عَلَى الشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدَ فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَنَالَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ وَلاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ فَإِنَّ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ تَسُرُّهُ حَسَنَتُهُ وَتَسُوؤُهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ)).

خطبتنا مع شرح هذا الحديث الشريف، والذي جمع فيه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم جِماعَ المواعِظِ وجوامِعَ الوَصايا، ولا جَرَمَ؛ فقد أُوتِيَ جوامِعَ الكَلِمِ.

يقولُ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم: ((أُوصِيكم بأَصْحابي)) أي: أَعطوهم حقُوقَهم وأنزِلوهم منزلَتَهم، وقدِّروهم، ولا تُهينوهم ولا تَسُبُّوهم، ((ثمَّ الَّذين يلُونَهم)) أي: وأُوصِيكم أيضًا بالَّذين يأتون مِن بَعدِهم وهم أبناؤُهم وأتباعُهم مِن التَّابعين، ((ثمَّ الَّذين يَلُونَهم)) أي: وأُوصِيكم أيضًا بالجِيلِ الثَّالثِ الَّذين يأتون مِن بَعدِهم وهم أَتْباعُ التَّابعين، وفي حديث مشابه يقول صلى الله عليه وسلم: ((خير الناس قرني.....))

((ثمَّ يَفْشُو الكذِبُ)) ثمَّ يأتي زمانٌ بعدَه ينتشِرُ فيه الكذِبُ ويَكثُرُ؛ إشارة لانتشارَ الشَّرِّ.

((حتَّى يَحلِفَ الرَّجلُ ولا يُستَحلَفَ)) فيَصِلُ الأمْرُ مِن الشَّرِّ في هذا الزَّمانِ أنْ يُكثِرَ الرَّجلُ الحلِفَ ولَم يُطلَبْ منه أنْ يحلِفَ؛ وذلك لفِسْقِه وفُجورِه.

((ويَشْهَدَ الشَّاهِدُ ولا يُستَشهَدَ)) ويَصِلُ أيضًا الشَّرُّ في هذا الزَّمانِ أنْ يشهَدَ الرَّجلُ شهادَةَ الزُّورِ ولَم تُطلَبْ منه، إنَّما يَشهَدُها فِسْقًا وفُجورًا.

ثمَّ قال ((ألَا))وهي أداةٌ للتَّنبيهِ ولفْتِ انتِباهِ السَّامِعِ((لا يَخلُوَنَّ رجلٌ بامرأَةٍ إلَّا كان ثالِثَهما الشَّيطانُ)) لا ينفرِدُ رجلٌ بامرأَةٍ أجنبيَّةٍ إلَّا كان معَهما الشَّيطانُ، فاحذَروا ذلك الأمْرَ فإنَّه قد يَسوقُكم إلى الزِّنى، والوقوع فيما حرم الله تعالى

((عليكم بالجماعَةِ)) الزَمُوا جماعَةَ المسلِمين، ولا تَحيدوا عنها، ((وإيَّاكم والفُرْقَةَ)) احْذَروا التَّفرُّقَ والتَّشرذُمَ والاختِلافَ فيما بينكم؛ فالفُرْقةُ شَرٌّ.

((فإنَّ الشَّيطانَ مع الواحِدِ، وهو مِن الاثنَينِ أبعَدُ))، أي: ينفرِدُ الشَّيطانُ بالَّذين يُفارِقون الجماعَةَ ويَكونون فُرادى مُتفرِّقين، ويكونُ تأثِيرُه عليهم أشَدَّ، ووسوسَتُه عليهم أقوى، أمَّا الجماعَةُ فهو منهم أبعَدُ، ولا يستطِيعُ أنْ يؤثِّرَ فيهم كما يؤثِّرُ على الفُرادى البَعِيدين عن الجماعَةِ، ((مَن أراد بُحْبوحَةَ الجنَّةِ فليلْزَمِ الجماعةَ)) أي مَن أراد أنْ يَدخُلَ الجنَّةَ ويكونَ في وسَطِ الجنَّةِ ويَظفَرَ بنعِيمِها فَلْيتمَسَّكْ بجماعَةِ المسلِمين ولا يبتعِدْ عنها ولا يخرُجْ مِن مُحيطِها، والبُحْبوحَةُ هي الوسَطُ، فبُحْبوحَةُ الدَّارِ وسَطُها وبُحْبوحَةُ الجنَّةِ وسَطُها.

((مَن سرَّتْه حسنَتُه وساءَتْه سيِّئتُه فذلكم المؤمِنُ)) أي ومِن علاماتِ الإيمانِ إذا أذنَبَ العبْدُ أنْ يسوئه ذلك الذَّنبُ، ويظلَّ نادِمًا يلومُ نفسَه على ارتِكابِه ذلك الذَّنبَ، وإذا فعَل قُرْبةً للهِ عزَّ وجلَّ يظَلُّ مَسرورًا بتوفِيقِ اللهِ له، وشاكِرًا للهِ على تثبيتِه وتوفِيقِه وهدايَتِه.

فهذا من دلائل الإيمان وعلاماته التي تدل على صدق المؤمن، سروره بالطاعات، وحزنه بالمعاصي والسيئات.

فبهذا المقياس يستطيع الإنسان أن يقيس به مستوى الإيمان في قلبه، ويحكم بنفسه على نفسه، فإذا صليت الصبح في جماعة ففرحت بتوفيق الله لك بذلك، وسررت بأداء الصلاة حاضرة مع جماعة المسلمين، تلك الصلاة المشهودة التي يُحتفى بها في الملكوت الأعلى، والتي لا يحرص عليها إلا المؤمنون، فذاك علامة الإيمان، وإذا أرشدت ضالاً أو دللت حيراناً على الصراط المستقيم، وكنت سبباً في هدايته وإرشاده، وفرحت بذلك العمل وسررت به، فأنت مؤمن.

وإذا هممت بريبة في خلوة، والنفس داعية إلى الطغيان، فجاهدت نفسك، واستعنت بربك، واستعصمت بإيمانك، فأنقذك الله من الرذيلة، وفرحت بذلك وسررت بالخلاص من الوقوع فيما يغضب الله فأنت مؤمن، وإذا غلبتك نفسك، وقارفت ذنباً وليس من عادتك انتهاك حرمات الله ،ثم استيقظ ضميرك، وتذكرت عقاب الله فتألمت وتبت واستغفرت، وندمت على فعلتك ،وعقدت العزم على أن لا تعود مرة أخرى إليها، وعلمت أن رحمة الله أوسع من ذنوبك، فإذا فعلت ذلك فأنت مؤمن، وقد أخرج البيهقي في الشعب بسند جيد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول:

((اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساؤوا استغفروا)) ،وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن مستبشراً بثواب الله ،خائفاً من عقابه ،وهو يؤدي الطاعات ويعمل الحسنات، حين تزل قدمه فيقع في المعاصي والآثام.

وفي هذا الحديث المتقدم ذكر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم علامة من علامات قياس درجة الإيمان ، ولكن هناك علامات أخرى يعرف بها المسلم مدى قوة إيمانه ، وأذكر لكم منها :

1 -تقديم ما يحبه الله ورسوله على ما تحبه نفسه وهواه.

2 -بذل النفس والمال والغالي والرخيص من أجل الله تعالى.

3 - حب من يحب الله ورسوله، وعداوة من يبغض الله ورسوله ويكفر بهما.

4 - الرضا بالقضاء والقدر وعدم وجود الضيق أو الحرج عند نزول البلاء.

5 - المسارعة والمسابقة إلى فعل الخيرات والكف عن المعاصي والمنكرات.

6 - الطمأنينة والانشراح عند ذكر الله تعالى، قال الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[الرعد:28]،وقال:{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ }[الأنفال،2-4].

7 - اليقين في الله والاعتصام به، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[الحجرات:15]

إن حكمة الله تعالى لا تقتضي أن كل من قال (إنه مؤمن) أو ادعى لنفسه الإيمان ، أن يكون بحق مؤمنا ، ولكن من سنن الله في خلقه أنه لابد أن يختبر ،ليعلم إن كان صادقا أو كاذبا في إيمانه ،ولا بد أن يصاب بالفتن والمحن ،ليتميز الصادق من الكاذب ،والمحق من المبطل، فسنته سبحانه وتعالى أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وتسلط الأعداء في بعض الأحيان ، و مجاهدتهم بالقول والعمل، ونحوها من الفتن التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة ،والشهوات المعارضة للإرادة، فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل، وعند ورود الشهوات الداعية إلى المعاصي يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دل ذلك على صدق إيمانه وصحته،

أما من عصفت بقلبه الفتن عند ورودها، ولم يستمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وجعل قلبه يتنقل بكل واد، وحاله حال المذبذبين فتارة مع هؤلاء، وتارة مع هؤلاء، وتارة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فهو ذو قلب محجوب، لا يتخلله الوعظ، ولا يثبت على الصراط؛ ومن كانت هذه حاله فليت أمه لم تلده، فهو على خطر عظيم، فليبادر كل عبد يخاف على نفسه: أن يعود إلى الله ،وإلى الإيمان به وبرسوله، وإلى اليقين بموعوده، وإلى التصديق بكتابه، وإلى الكفر بالطاغوت وأوليائه، وإلى موالاة أولياء الرحمن ومعاداة أولياء الشيطان .روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا ،أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا ،يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا)

وعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : (تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ : عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ،وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ)، قال النووي: قَالَ صَاحِب التَّحْرِير: مَعْنَى الْحَدِيث أَنَّ الرَّجُل إِذَا تَبِعَ هَوَاهُ وَارْتَكَبَ الْمَعَاصِي دَخَلَ قَلْبه بِكُلِّ مَعْصِيَة يَتَعَاطَاهَا ظُلْمَة، وَإِذَا صَارَ كَذَلِكَ أُفْتُتِنَ وَزَالَ عَنْهُ نُور الْإِسْلَام. وَالْقَلْب مِثْل الْكُوز فَإِذَا اِنْكَبَّ اِنْصَبَّ مَا فِيهِ، وَلَمْ يَدْخُلهُ شَيْء بَعْد ذَلِكَ.

فالعبد ما دام يسمع ويطيع لمولاه، ويوالي فيه، ويعادي فيه، ولا شيء أحب إليه من طاعة سيده ومولاه، ولا أكره لديه من عصيانه والبعد عن صراطه، ولا تزيده الفتن إلا تعلقا به إيمانا ويقينا، فهو المؤمن حقا، وأما من انشغل بالهوى عن الهدى، وآثر محبة عدوه على طاعة ربه، وكلما وردت فتنة عصفت بقلبه، ثم لا يزال في الشك والحيرة: فذاك مدخول الإيمان.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين